ينابيع الحقد

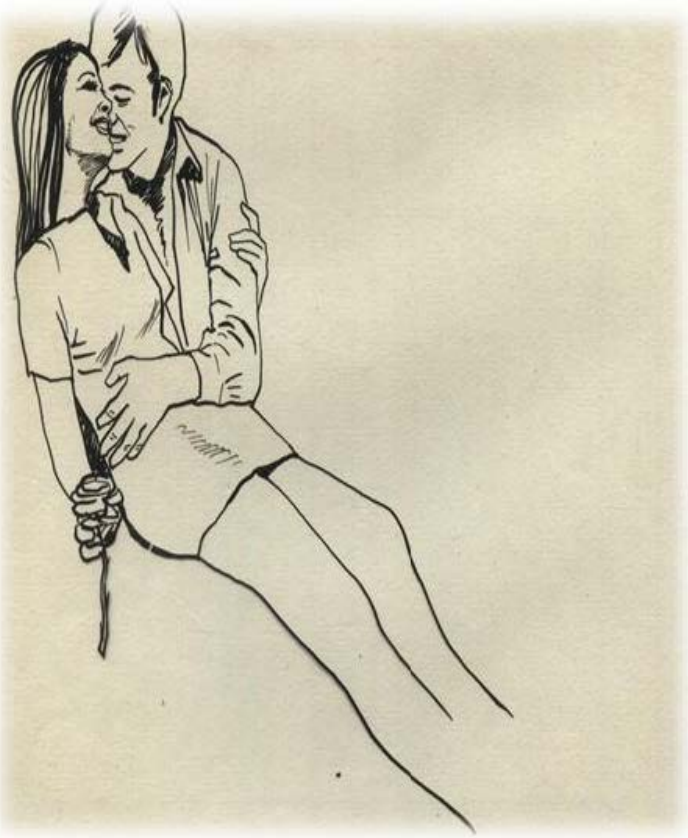

كانت المقارنة بيني وبين أختي التوأم أمراً شاقا على نفسي ، أنا أكبر منها بعشرة دقائق فقط ، و لكنها هي الفائزة دائما ، حقا إنها جميلة ، جميلة جدا ، و هناك فرق كبير بيننا في أشياء كثيرة ، و خاصة معاملة الأسرة لها ، الكل يحبها ، و يدللها ، و يداعبها ، و الجميع ينادون : " دلال "...أيـــن أنت يا " دلال " ؟ ... ماذا تريدين يا " دلال " ؟ .

و يقدمون لها ما تحتاج إليه ، وينسون أختها " عفاف " التوأم نسيانا تاما ، يخطئ الكبار فيتعذب الصغار ما ذنبي ؟ و ما جنيت ؟ إذا أراد القدر أن أكون عكسها تماما هل ؟ و هل .. و هل ؟ .

حقا إنها أختي الصغرى ، أحبها ، ألعب معها ، و أشتاق إليها ، خاصة إنها لطيفة ، مرحة ، بسيطة في تصرفاتها ، و أحاديثها ، بعيدة كل البعد عن الكبرياء و الغرور .

التحقنا بمدرسة واحدة ، و فصل واحد ، كانوا يفضلونها على ، و يغفرون لها الأخطاء التي ترتكبها فى المدرسة و المنزل .

شعرت بألم داخل نفسي ، و شيء ما يمزق صدري ، أحاسيس غريبة تنتابني ، لابد أن أثبت لهم وجودي ليشعروا بي ، و يتحدثوا عني ، و حدث ما كنت أتمنى ،

جاءت شهادتي " الأولى " بعكس " دلال " كانت متعثرة في دراستها ، و لكن الكل كان يغفر لها ذلك ، و يخففون من آلامها .

و تقول أمي : " مش مهم أن تكون " الأولى " مثل " عفاف " النجاح لها كفاية ، البنت ليس لها إلا الزواج ، و" دلال " كل من يراها يطلب يدها ، و يتمنى رضاها ، المهم يوافق أبوها " .

و لكن أبي كان لا يوافق و يقول : " الشهادة أولا ثم الزواج ثانيا ، العلم سلاح للزمن ، و حماية من تقلبات الأيام ".

و مرت السنون ، و ما زلت أشعر بألم التجاهل و النسيان يعصران قلبي ، صارت أختي " دلال " شابة رائعة الحسن و الجمال ، و جميع الأهل و الأقارب يطلبونها لأولادهم ، و لا أحد منهم يذكر اسم " عفاف " .

المهم جاءني العوض ، نجحت فى الثانوية العامة بمجموع كبير ، و استطعت أن أحقق أمنيتي فى الالتحاق " بكلية الطب " ، أما " دلال " فكان مجموعها لا يؤهلها إلا لدراسة متوسطة معهد سنتان .

وقفت بعيداً أسمع و أقول لنفسي : " هل كنت سألقى نفس التشجيع لو كنت مكانها ، لا أعتقد ذلك ، فمثلي لا يغفر لها أبدا حتى الهفوات " .

فى هذه الليلة نمت مستريحة البال ، هادئة النفس ، فلأول مرة فى حياتي ، منذ ولدت تشاء الظروف أن أبتعد عن " دلال " ، أن أتحرر فى أحد ميادين حياتي ، و أسير في طريق بمفردي و بدونها أن تكون لي حياة خاصة بي ، و تتجه الأنظار لي وحدي و ليس لها .

مر العام الأول و أنا سعيدة بحياتي الجديدة ، و كذلك العام الثاني ، و أخذت فرصتي فى إثبات وجودي ، أصبح لي أصدقاء يعجبون بلباقتي ، و ذكائي ، و أناقتي ، و قوة شخصيتي ، يسعون إليّ ، يلتقون بي ، يلتفون حولي ، يتحدثون معي ، يتناقشون كل ذلك بعيدا عن " دلال " ، بدأت أسترد كياني ، و أحدد ملامح خطواتي ، و أنظر إلى المرآة لاستخراج عناصر جمالي و أهتم بها ، و لأول مرة في حياتي أشعر بالرضا ، و الحب لأختي " دلال " و خاصة عندما دق قلبي .

كان" طارق " معيدا بالكلية ، تقابلنا في المكتبة ، و قامت بيننا مناقشة علمية تفوقت عليه فيها ، و من يومها أصبحنا لا نفترق إلا قليلا ، كنت أبحث عنه إذا غاب و كان يبحث عنى إذا افتقدني ، و كانت الفرحة و اللهفة وسيلتنا عند اللقاء ، لتعبر عما يدور في أعماقي ، و صارت صداقتنا البرئية حديث كل لسان لا يشوبها

شيء ، و لا يعكرها كلام فكل ما بيننا احترام متبادل و مناقشات علمية .

و أخبرت والدتي بما يدور في نفسي ، و يشغل تفكيري ، فرحت ، و هللت و قالت : " لقد جاء الفرج يا " عفاف " ، لقد تقدم لأختك " دلال " أكثر من عريس رفضهم والدك بحجة إنك الكبرى ، و لكن بعد ذلك لن يجد حجة " .

فضحكت لحظة و قلت : " أكبر منها بعشرة دقائق يا أمي ، و لا تؤجلوا زواجها بسببي ، فلن أتزوج إلا بعد الانتهاء من دراستي ، أربع سنوات كثيرة ، و " دلال " أنهت دراستها ، و من حقها أن تتزوج " .

و عشت أسعد أيام حياتي ، " طارق " أول رجل يطرق باب قلبي ، ياللعجب ، شعر بما تلهفت عليه من سنوات على من يخترق أسوار قلبى ، ويتقرب منى ، الكل يتقربون من " دلال " و يتحدثون عن " دلال " ، حتى الأهل ، و الأقارب ، الخُطّاب تزاحموا على بابها ، و هي مازالت فى الخامسة عشرة من عمرها .

نسيت الماضي تماما ، و فى نشوة الفرحة و السعادة ، أردت أن أثبت " لدلال " أنني في مجتمعي الجديد وجدت فرصتي و سعادتي ، و أخبرتها بدقات قلبي

، و حدثتها عن " طارق " كما لم أتحدث عن رجل من قبل ، طلبت مني أن تراه لتتأكد من حسن اختياري .

فى اليوم التالي ، قابلت " طارق " ، و أخبرته أن أختي " دلال " ستأتي لزيارتي و ستنتظرني في " بوفيه " الكلية حتى تنتهي محاضراتي ، وعليه أن يحضر لمقابلتها و التعرف عليها .

حضرت " دلال " قبل موعدها ، و دخلت " البوفيه " و جلست تنتظرني كانت محط أنظار الجميع ، وصل " طارق " قبلي لم يكن يعرفها ، وصلت و وقفت أراقب الموقف من بعيد ، حدث ما لم أكن أتوقعه اقترب منها ، ألقى عليها التحية .. ابتسمت ، جذب أحد المقاعد و جلس إلى جوارها ، همس إليها بكلمات زادت ضحكتها ، ظهرت على وجهه علامات السعادة ، بدأت أقترب منهما ، لا يشعران بوجودي .

سمعته يقول : " فرصة سعيدة جدا يا أنسة " ..

أكملت الجملة " أنسة دلال " أختى التوأم .

وقف " طارق " و هز رأسه ، و ابتسم ابتسامة محيرة و قال : " يا لها من فرصة سعيدة ، إنها مثل الفراشة الجميلة ، الرقيقة ، يقترب منها كل من يراها ، من حسن حظي أنها أختك يا " عفاف " ، و استأذن و انصرف و لم يجلس معنا كما اتفقت معه .

لم أفهم معنى الجملة إلا فى اليوم التالي ، تقابلت مع " طارق " جلس معي ، كان شاردا ، صامتا ، ينظر إلى لا شيء ، عندما بدأ الكلام سألني عن " دلال " ، نوع دراستها ، هل تعمل أم لا ؟ هل ... ؟ و هل .... ؟ .

أشياء كثيرة لم أرد عليها أو أستوعبها ، كنت أهز رأسي كالآلة ، و استأذنت و انصرفت .

مضى أسبوع ، و أنا أبتعد عن جميع الأماكن التي كنت ألتقى فيها " بطارق " امتنعت عن الذهاب إلى المكتبة ، و البوفيه ، و لكن فجأة وجدته أمامي قال بلهفة :

" أين كنت يا " عفاف " لقد بحثت عنك طويلا ؟.

قلت بحدة و صرامة : " الامتحان اقترب ، و لا يشغل تفكيري غير دراستي ".

قال بأدب و لطف : " ألا تحتاجين مساعدتى أيتها الدكتورة ؟ " .

قلت ببساطة : " لا ..... أحب أن أعتمد على نفسي " .

قال بمرح : " أعلم ذلك جيدا ، هذا ما يعجبني فيك ، و لكن هناك موضوعا يهمك ، و لا بد أن أتحدث معك فيه "

أخذ قلبي يدق بعنف ، لعله يريد أن ..... و أوقفت دقات قلبي كلماته : " إن أختك " دلال " ممتازة ، مرحة ، رائعة ، بسيطة ، متواضعة ، على الرغم من جمالها ،

و أهم شيء أنها أختك " يا عفاف " و هذا ما يشجعني و يسهل مهمتي .

منذ أن رأيتها و صورتها لا تفارق خيالي ، و بصفتك أختها الكبرى أتقدم إليك لأطلب يدها " .

يالسخرية القدر ، الرجل الوحيد الذى أحببته و دق له قلبي ، يطلب أختي ، و يتمنى أن أتوسط له لديها لترضى عنه ، وتتزوجه ، أنا التي تصورته سندي و قوتي ، و أملي فى الحياة ، و فرحة عمري ، يتحول هو نفسه لطعنه قاتلة لقلبي ، و كبريائي و أنوثتي .

أحسست بقلبي يتمزق ، و ألم شديد يفتك بصدري ، و شلل يقيد عقلي و فكري و لكن استجمعت كل شجاعتي ، و تحديت نفسي و قلت بكبرياء : " سوف أخبرها بما قلت ، المهم أن ترضى هي عنك " .

لم أكره " طارق " بقدر حقدي على " دلال " ، تراني حقدت عليها منذ الصغر و تظاهرت بغير ذلك عن كبرياء ، ما زال الكبرياء يطاردني ، و على الرغم من ذلك قمت بالوساطة بين " طارق " و" دلال " أخبرتها بما قال عنها و أنه يريد مقابلتها ليتعارفا قبل أن يتقدم لخطبتها .

نسيتني تماما فرحت و هللت و رحبت به ، و تقـــابلا ، و بعد اللقاء الأول قالت عنه : " إنه رقيق و

مهذب و لطيف و يمتاز بشخصية قوية و رجولة تجذب العواطف " .

تقابلا مرات و مرات ، و في كل مرة كانت تأتي فرحة لتخبرني بما دار بينهما من أحاديث ، و تطلعني على رسائله الملتهبة ، و شوقه الجارف ، و تصارحنى بأحلامهما و وعودهما .

كنت أستمع إليها جيدا ، و لم أخذل أحدهما في الظاهر ، و لكن بيني و بين نفسي كنت أعاني عذابا هائلا ، كل رواسب الماضي تراكمت في أعماقي ، و أصبحت جبلا من المرارة و الحسرة و الحقد و الكراهية و الألم .

لقد كان " طارق " فرصتي الوحيدة ، و أول حب في حياتي ، و أملي الوحيد و دلال أختي التوأم هي التي سلبتني كل ذلك لولاها ما ابتعد عني .

و تدخل القدر ليلعب لعبته ، لقد تقدمت إحدى الأقارب تطلب يد " دلال " لابن أخيها ، شاب ممتاز يعمل بالسلك الدبلوماسى ، ثري ، جذاب ، لا يعيبه شيء ، وجده أبي فرصة نادرة رحب به خطيبا " لدلال " ، و حاولت هي بتوسلاتها و دموعها أن تقنع أبي بتأجيل فكرة الزواج قليلا حتى أتزوج أنا .

عندئذ قلت بحدة : " أنا لن أتزوج ، لا داعى لرفض العريس أو التأجيل ".

ربت والدي على كتفي ثم قال : " العريس ممتاز لا يعيبه شيء ، و لا ينقصه شيء ، و يملك كل شيء ، ليته طلبك أنت يا " عفاف " ، و لكنه اختار أختك " دلال " ، و يريد أن يتزوج سريعا قبل سفره إلى مقر عمله .

قلت بدهاء و أنا أقبل " دلال " : " مبروك " دلال " تستحق كل خير ، و العريس ممتاز تتمناه أي فتاة ، إنها توأم روحى " .

و تخلت " دلال " عن " طارق " ، و تزوجت الآخر " حسام " .

شعرت بالفرحة و السعادة لتخليها عن " طارق " ، و لكن ما زالت آلام الحقد و الكراهية تملان قلبي الجريح .

لقد نال " طارق " جزاءه ، تلقى صفعة الهجر و الحرمان بلا رحمة ، و في شماتة صامتة قبلت أن أكون لأحزانه ملاذا .

و لكن حقدي لم يتلاشى ، على النقيض ازداد اشتعالا ، " دلال " سلبتني حبي و حطمت قلبي ، و بلبلت حياتي ، ثم حظيت بزوج لا تناله سوى القليلات .

أية عدالة هذه التي تفرض شريعتها على المجتمع ؟ لماذا تفوز " دلال " بكل شيء ؟.
الجمال و الحب ، و الزواج و الثراء ، و أحرم أنا أختها التوأم .

و جاءت الفرصة التي عشت عمري كله أنتظرها ، لقد صار " طارق " حطاما ليس له إلا حبه الضائع ، و ذكريات مكتوبة على الورق ، و أحلام تلعب بها الرياح ..

عادت " دلال " إلى أرض الوطن الحبيب ، كانت ترتدي أفخر الثياب و أغلاها و تفوح منها رائحة العطر الثمين ، و تتزين بأجمل المجواهرات و الحلي .

عادت لتقيم معنا حتى تنتهي من تجهيزات " الفيلا " الفاخرة التي اشتراها لها " حسام " .

رحبت بها و لهجتي لا تخلو من الاستنكار : " يبدو أنك سعيدة جدا فى حياتك الجديدة يا " دلال " .

قالت بابتسامة رقيقة : " أفهم قصدك ، تعنين أننى قد نسيت " طارق " ، سوف أشرح لك يا أختي الكبرى ، إننا لا نستطيع أن نعيش للأبد مع الذكريات ، خاصة و أن زوجي " حسام " رقيق و مهذب ، و يحبني ، و يعاملني معاملة حسنة ، و يحقق لى كل رغباتي ، إنسان كريم ، و سخي و نبيل لا يضن على بشيء ، و أمام

حبه و إخلاصه فتحت له قلبي و حبي و وفائي ، و نسيت الماضي ، عيبه الوحيد إنه يهتم بعمله كثيرا فينشغل عني و لكن عما قريب سيأتي ضيف جديد يؤنس وحدتي ".

شردت مع نفسي أفكر أردد " أنها حامل " و ابتسمت و قلت لها : " نصائحك مفيدة يا " دلال " يجب أن ننسى الماضي ، و نعيش الحاضر ، و لكن كيف و الماضي يقتل الحاضر و يدمره ؟ .

انتهزت " دلال " فرصة انشغال زوجها مع أبي ، و جلست إلى جواري و قالت : " عفاف " لي طلب بسيط ، سأعطيك خطابات " طارق " و صوّره لتسليمها له و تحضري لي صوري و خطاباتي ، أنا الأن زوجة ، و بعد أيام سأصبح أما ، و أكيد هو سيتزوج فلا داعي لأن يحتفظ كل منا بخطابات الآخر" .

لم يعارض " طارق " عندما نقلت له رغبة " دلال " في استراد خطاباتها و صورها كان شهما مهذبا و قال :

" دلال " تستحق كل خير ، و لا أستطيع أن أرفض لها رغبة ، و قدمهم لي و رمقته بغيظ و حقد ، حتى بعد أن خذلته و تزوجت غيره ما زال يحمل لها عاطفة صادقة ، لماذا هي دائما و أنا أبدا ؟ .

أخذت خطابات " طارق " و ذهبت إلى حجرتي ، و أغلقتها خلفي ، و جلست أقرأ لم يخطر ببالي أن تكتب " دلال " هذه العبارات الملتهبة و الأشواق الحارة التي تفصح بها مكنون قلبها ، و تدفق حبها ، و أنها ستظل ملكا له إلى الأبد و لن تكون لأحد غيره مهما حدث .

طويت الخطابات و سلمتها إلى " دلال" التي أسرعت بإلقائها فى النار لتخفيها إلى الأبد ، و تنفست براحه عميقة و جلست إلى جواري و قالت :

" الأن زال الكابوس الثقيل عن صدري ، و أستطيع أن أنعم بحياتي مع " حسام " بلا خوف " .

و من فرحتها نسيت أن تعد الخطابات التي أرسلتها " لطارق " لو فعلت لاكتشفت أنها تنقص واحدا أكثرها عنفا و حبا و شوقا و هياما و تحررا .

ذلك الخطاب هو الذي وصل إلى زوجها بعد عدة أيام عن طريق البريد ، طلقها بعد أن ضعفت أمام اتهاماته ، و اعترفت بكل شيء ، و رفض أن ينسى أو يغفر لها و تركها و رحل .

تحطمت " دلال " تماما ، و فقدت ثقتها بالناس الزوج طلقها ، و الحبيب غدر بها .

أجل .. لأنها اعتقدت أن " طارق " هو الذى أرسل الخطاب لزوجها لينتقم منها و يدمر حياتها كما دمرته ، و قالت و الدموع تملأ عينيها :

" من غيره تأكل الغيرة قلبه ، و ينهش الحقد صدره ، يتمنى لي الدمار، إنه حقير غشاش ، خائن ، سيئ الخلق " .

و أطرقت صامتة ، كنت مصرة على أن يبقى سري سجينا داخل نفسي إلى الأبد ، و لم أتصور أن انتقامي سيصبح سلاحا ذو حدين يصيب أختي و يصيبني ، و سيكون منبعاً جديدا للعذاب في حياتي أشد قسوة و وحشية من " ينابيع حقدي " .